مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 17، العدد 68 (خريف 2006)، ص 113

وليد العمري*

قناة الجزيرة في الحرب الإسرائيلية السادسة

لم تعتد إسرائيل في حروبها مع الدول العربية تلقي ضربات في جبهتها الداخلية. هذه المرة في حربها مع حزب الله اختلف الأمر واختلط عليها. ففي مقابل هجماتها التدميرية على لبنان، بمدنه وقراه وعاصمته، هوجمت جبهتها الداخلية، ووجدت أنها لا تقل هشاشة عن الداخل اللبناني، ومن شأنها أن تكون سبباً أساسياً لهزيمة في حرب غير متكافئة في العدة والعتاد كسابقاتها، لكن كيل الصاع صاعين لها أمر لا مهرب منه.

صورة إسرائيل التي يهجر فيها ربع سكانها منازلهم في الأيام الأولى للحرب، وتتعرض مدنها وبلداتها وقواعدها العسكرية لقصف صاروخي آثاره النفسية لا تقل عن قوته التدميرية، أفقدت صناع القرار على المستويين العسكري الأمني والسياسي كثيراً من اتزانهم. مشاعر الإخفاق في تحقيق الأهداف المعلنة في الأيام الأولى من الحرب، مع الضربات الصاروخية التي وجهها مقاتلو حزب الله على الرغم من النيران الإسرائيلية المتواصلة من البر والبحر والجو على كل بشر وشجر وحجر يشتبه في أن له علاقة بحزب الله ما بين الحدود الدولية وصولاً إلى بيروت وبعلبك في وسط لبنان، سببت كثيراً من الإحباط للقيادة الإسرائيلية غير المتمرسة، متمثلة برئيس الحكومة إيهود أولمرت، ووزير دفاعه عمير بيرتس.

هذا الوضع جعل السلطات، بتحريض أرعن من عدة جهات إسرائيلية، بينها صحافية إسرائيلية رسمية، تلاحق وسائل الإعلام في محاولات لكتم أي صوت من شأنه أن ينقل حقائق تخشاها المؤسسة الرسمية. وطبيعي أن تكون قناة الجزيرة، بطاقمها العامل في شمال إسرائيل، على رأس المستهدفين. فهذه القناة، الرافضة للتدجين عربياً، لا يمكن أن تستسلم للتطويع إسرائيلياً. ناهيك عن أنها لم تقع في نقلها للأحداث طوال أيام الحرب الثلاثة والثلاثين في أي مطب أو خطأ يحسب عليها، وهذا ما كان عليه حالها على مدار انتفاضة الأقصى أيضاً، وما قبلها.

من هنا أصبحت "الجزيرة" مصدراً للتحقق من أخبار الحرب ومسارها. فكانت وسائل الإعلام الأُخرى، من وكالات عالمية وغيرها، سرعان ما تتلقف الأنباء التي تبثها قناة الجزيرة، وخصوصاً المتعلقة منها بعدد الخسائر في الأرواح في صفوف القوات الإسرائيلية، أو في موقع سقوط الصواريخ. ولم تكن "الجزيرة" بذلك تكشف سراً دفيناً، وإنما كانت الأسرع في نقل الخبر من دون تبهير أو مبالغة. وما أغضب الإسرائيليين في ذلك أن "الجزيرة" سبقت وسائل إعلامهم، صاحبة الباع الطويل في هذا المضمار، والذي غالباً ما كانت وسائل الإعلام، وفي طليعتها العربية، تنقل عنها ما تقول، فإذا بها تجد نفسها متأخرة تتلقط الأنباء من وسيلة غريبة. والغريب في أمر هذه الوسيلة أنها من العالم الثالث، والأنكى أنها عربية حققت اختراقاً إعلامياً دولياً. وهذا مكمن الخطر وموطنه وما يبطنه من دوافع منشؤها استعلاء عنصري يمتد إلى الغرب، ومنشؤه أميركي.

التغطية الصحافية

صبيحة ذاك اليوم، وهو الثاني عشر من تموز/يوليو، كنت مع فريق مزدوج من زملائي في طاقم الجزيرة في القدس، نستعد لإجراء لقاء صحافي خاص مع وزير الدفاع الإسرائيلي، عمير بيرتس، لقاء عمِلْنا من أجله منذ لحظة توليه هذه الحقيبة؛ وهي الأهم في الحكومة الإسرائيلية وفي دائرة صناعة القرار. وبينما كنا نستعد لعبور الحاجز العسكري قرب مخيم قلنديا بين القدس ورام الله في طريقنا إلى مكتب الجزيرة في القدس، وردت أولى المعلومات عن عملية عسكرية على الحدود بين لبنان وإسرائيل. وبعد التدقيق السريع تبين أنها هجوم لحزب الله. في تلك اللحظة تم تحريك طاقم الجزيرة في مدينة الناصرة، وعلى رأسه الزميل الياس كرام، إلى كيبوتس زرعيت حيث موقع الهجوم، وتبعته سيارة البث المباشر. كانت "الجزيرة" أول من وصل إلى الموقع وباشرت بثاً حياً مع مراسلها، وذلك قبل أن تتمكن حتى وسائل الإعلام الإسرائيلية من ذلك.

الدقائق العشر ما بين حاجز قلنديا ومكتب الجزيرة في القدس كانت كفيلة بإعطاء صورة وافية لما جرى فعلاً. وقد بثت قناة الجزيرة نبأ العملية بالتدريج التزاماً بالمعلومات المؤكدة. في البداية نبأ عن هجوم لحزب الله، ثم عن قتيل في صفوف الجيش الإسرائيلي، وبعد ذلك عن أسر جنديين وقتل ثمانية في كمين نصبه مقاتلو الحزب لدوريتين مصفحتين على الحدود قبالة كيبوتس زرعيت، وهو الأقرب إلى خط الحدود هناك. المعلومات تناقلتها

وسائل الإعلام نقلاً عن "الجزيرة" ودفعت بطواقمها إلى الموقع، ووزير الدفاع الإسرائيلي بلّغ، بواسطة مستشاره الإعلامي، الزميلةَ نجوان، منتجة الأخبار في مكتب القدس، إلغاء اللقاء الصحافي المقرر للوزير مع قناة الجزيرة لانشغاله بالتطورات الخطرة على الحدود مع لبنان. وكان هذا دليلاً على أن إسرائيل تستعد لتحرك عسكري لم يتوقع أحد أن يصل مداه إلى حجم حرب تدميرية بالمستوى الذي بلغته. في هذه المرحلة كان واضحاً أن الأمر خطر جداً ويتطلب استيضاحاً من الناطق العسكري، وما إذا هناك إجراءات استثنائية بالنسبة إلى عمل الصحافيين وتحركاتهم على طول الحدود. وكان الجواب: "في وسعكم التنقل كيفما تشاؤون. لكن في اللحظة التي يبلّغكم الجنود أن المكان منطقة عسكرية مغلقة عليكم المغادرة." وهذا ما تم فعلاً.

في تلك اللحظات تم استنفار جميع طواقم الجزيرة في المكاتب الثلاثة في رام الله والقدس وغزة. وتم خلع البذلة وربطة العنق واستبدالها بملابس ملائمة لتغطية الحدث: سروال جينز، وحذاء رياضي خفيف، و"جاكيت" كثير الجيوب يستخدمه الصحافيون ويطلقون عليه اسم "حمّال الأسية" لما يضعونه في جيوبه الكثيرة من أجهزة وأوراق تعجز عنها حقائبهم، إلى جانب أجهزة هاتف نقالة وحاجيات من مستلزمات العمل.

وتم تعزيز طاقم الجزيرة على الحدود مع لبنان بطاقم تصوير إضافي. وفي اليوم التالي التحقتُ بهما وانضممت للعمل حيث كان طاقم يقوم بتغطية مباشرة متنقلاً من موقع إلى آخر، وطاقم يعد التقارير الإخبارية عما يجري في الشمال الإسرائيلي، سواء على المستوى المدني أو على المستويين العسكري والسياسي.

وفي الحقيقة، وعلى الرغم من التغطية المتواصلة على امتداد أعوام الانتفاضة وما أحدق بها من خطورة، فإن تغطية الحرب على لبنان كانت جديدة ومختلفة. إذ مع أن الطواقم التي غطت هذه الحرب هي ذاتها التي غطت العملية العسكرية الإسرائيلية على غزة خلال الشهر الذي سبق انفجارها، إلاّ إن كل شيء هنا كان مختلفاً. فالمدفعية الإسرائيلية التي قصفت لبنان كانت أشد وأقوى، وصداها يبعث على الرعب، وكذلك الدبابات وشكل الجنود وجاهزيتهم. على الحدود مع غزة، كنا نقف على مقربة من مرابض المدفعية، وفي بعض الأحيان بجانبها. لكن على الحدود مع لبنان كنا نقف على بعد يزيد على المئة متر منها، ومع ذلك كان يرعبنا دوي قذائفها.

وأذكر أنه في قرية عرب العرامشة في الجليل الغربي، وعلى بعد أمتار من الحدود مع لبنان، كانت القذائف والصواريخ تمر فوق رؤوسنا وهي متجهة إلى لبنان على نحو كان يجعلنا نطأطئ قاماتنا في حركة عفوية سببها الخوف الفطري.

أيام بلياليها أمضيناها نتحرك على طول الحدود ونستبدل الطواقم الفنية والمراسلين الأربعة الذين كانوا على رأس هذه الطواقم. كانت مساحة التغطية الصحافية تزداد مع ازدياد مدى صواريخ حزب الله. وكانت الليلة الثالثة مختلفة عن سابقتيها، إذ شهدت إعلان إسرائيل سقوط أول صاروخ يطلقه حزب الله على مدينة حيفا، وهي أبعد مدى استهدفته صواريخ حزب الله. الصاروخ سقط في شارع ستيلا مارس على جبل الكرمل. عندما وصلنا لم نجد سوى آثار طفيفة لتهشُّك في طرف الشارع لا يدل عليه سوى أن الشرطة أغلقت المكان. نقلت ببث حي ما وصف كآثار للصاروخ المذكور. ثم غادرنا المكان عائدين بعد منتصف الليل إلى مقر ساعات نومنا القليلة جداً في كيبوتس زرعيت. وفي اليوم الرابع للحرب أمر الجيش الإسرائيلي جميع الصحافيين بمغادرة الكيبوتس، الذي اتخذوه مقراً لعملهم، معلناً أن المكان منطقة عسكرية مغلقة، ومع وصول صواريخ حزب الله إلى مدينة نهاريا انتقل الصحافيون إلى منطقتي حيفا وعكا الساحليتين.

الحرب على الإعلام

غادرت شمال إسرائيل في اليوم الخامس للحرب عائداً إلى القدس، وحلّت مكاني إلى جانب الياس كرام الزميلة غيفارا البديري. غداة اليوم الذي وصلت فيه إلى القدس، وفي صبيحته على وجه التحديد، كان هناك بث حي لقناة الجزيرة من مدخل مدينة عكا قبالة الفندق الذي انتقل إليه الفريق بعد مغادرته زرعيت. كان ذاك الصباح مفصلياً في مسار الحرب، وأيضاً في التغطية الصحافية، ولا سيما بالنسبة إلى قناة الجزيرة. فبينما كان مراسل الجزيرة، الياس كرام، يبث على الهواء بدأت صواريخ حزب الله تتساقط على مدينة حيفا ومنطقتها. وبدأ المراسل بالحديث عما يجري. لم تكن كاميرا الجزيرة قادرة على التقاط صور واضحة لمدينة حيفا تحت القصف بسبب بُعد المسافة، وأيضاً بسبب حالة الطقس. لكن إحدى وكالات الأنباء كانت إلى جانب محطات التلفزة الإسرائيلية في الكرمل ونقلت صوراً أكثر وضوحاً انتقلت إليها "الجزيرة"، بينما كان مراسلها يصف ما يجري. كان قصف حيفا قد هز المؤسسة الإسرائيلية بفروعها السياسية والإعلامية والعسكرية. وفي تلك اللحظات كان راصد الأخبار في الإذاعة

الإسرائيلية الرسمية باللغة العبرية يتابع "الجزيرة" كعادته، فاقتحم البث وأخذ يصرخ: "لا حاجة بحزب الله إلى أقمار صناعية، ولا حاجة بنصر الله إلى العملاء، فما يجري لا يصدق، الجزيرة تبث بشكل حي ومباشر سقوط صواريخ حزب الله على حيفا، ولديها كاميرا تحلق في منطقة الكرمل بحرية وتنقل القصف والأهداف مباشرة." في تلك الأثناء ثارت ثائرة مقدمة البرنامج، وكانت تستضيف وزير البنى التحتية، بنيامين بن – إليعيزر، الذي سارع إلى إعلان أنه سيضع حداً لذلك بشكل فوري، ولن يسمح باستمراره.

لم يكن للجزيرة كاميرا تحلق في سماء حيفا، والصور التي بثتها كانت لوكالة الأسوشيتدبرس، وقد نقلها أيضاً بعض القنوات الإسرائيلية. لكن ذلك لم يغير من الأمر شيئاً. فما هي إلاّ ساعة حتى حضرت الشرطة واقتادت الياس والفريق العامل معه إلى مركز الشرطة في مدينة حيفا.

مكث الفريق ساعة محجوزاً داخل السيارة بلا أي اتصال بالعالم الخارجي، وبعدها أُخلي سبيله من دون سؤال. لم يكن أمامي من مفر، بصفتي مدير مكتب الجزيرة والمراسل الأول لطاقمها في الأراضي الفلسطينية وإسرائيل، إلاّ أن أشد الرحال إلى حيفا. هناك تم تسريح الطاقم واستبداله، وواصلت العمل بنفسي. وانتقلت من مكان إلى مكان، إلى أن وصلت إلى حيث كان يوجد أكثر من عشرة طواقم تلفزة عربية وإسرائيلية وأجنبية على جبل الكرمل. وقد بلّغني زملاء من إحدى شبكات التلفزة الأميركية أنهم كانوا يصورون جرحى في مستشفى رمبام في حيفا، وأن ما شاهدوه لا يمكن أن أصدقه. قالوا إن معظم أجهزة التلفاز في المستشفى كان يتابع قناة الجزيرة.

أنهيت البث للبرنامج الإخباري "حصاد اليوم". وبعد ساعة، وكان الليل قد انتصف، إذ بأربعة من رجال الأمن يأتون إلينا بسيارة مدنية وبزي مدني، اتضح أنهم من الاستخبارات. وعندما أجبتهم عن سؤالهم عنا بأننا من قناة الجزيرة، قال كبيرهم: عليكم التوقف عن العمل فوراً، وجمع معداتكم ومرافقتنا إلى مركز الشرطة في حيفا. وهذا ما كان، إذ رافقناهم جميعنا، بما في ذلك سيارة البث والفني العامل فيها. مكثنا في مركز الشرطة ساعتين، حتى الثانية بعد منتصف الليل. لم يسألنا أحد عن شيء، وكل ما جرى هو أن الضابط المناوب أخذ بطاقات هوياتنا وبطاقاتنا الصحافية. بعد ساعتين دعاني الضابط، وقدم اعتذاره قائلاً: "لا أعرف لماذا تم إحضاركم. وأنا آسف على ما جرى." وأُخلي سبيلنا.

عدنا إلى الفندق عند مدخل مدينة عكا. وفي صباح اليوم التالي قمنا ببث نشرة "هذا الصباح" من الشارع الرئيسي. وما إن أنهينا البث حتى جاءتنا سيارة شرطة. قال كبيرهم: لقد تلقينا اتصالات هاتفية من إسرائيليين قلقين من أن "أبناء أقليات يقومون بالتصوير في المنطقة"، فأجبتهم: وما الغريب في ذلك، أم أن "أبناء الأقليات مهمتهم جمع القمامة في هذه الدولة. فهناك عشرات الصحافيين وطواقم التلفزة تنشط في المنطقة منذ بداية الحرب" ("أبناء الأقليات" مصطلح عبري يشير إلى الأقلية العربية داخل الخط الأخضر، وهي تسمية سيئة ذات مدلولات عنصرية منبعها تقسيم العرب في إسرائيل إلى مسلمين ومسيحيين وبدو ودروز، وفي بعض الأحيان فلاحين أيضاً). ضحك محرجاً، وأضاف: "لا تفهمني خطأً، فالناس قلقون بسبب الوضع." وطلب بطاقات هوياتنا، وبعد ثلاثين دقيقة من الفحص والتدقيق، أعادها إلينا وغادر بدوريته.

رأيت في تلك اللحظة أن من الأنسب التوجه إلى إحدى البلدات العربية القريبة. ونظراً إلى حالة الشلل في المدن، بسبب القصف والإجراءات الطارئة، كنا نبحث عن دكان لشراء بعض الماء والطعام.

كانت كفر ياسيف أقرب البلدات العربية. قصدناها، ولي فيها صاحب أصر على دعوتنا إلى شرب القهوة. وبينما نحن في منزله طلبت "الجزيرة" إجراء مقابلة حية معي حول التطورات. اعتلينا سطح منزله، وكانت الخلفية حقل أشجار زيتون مترامي الأطراف تظهر في آخره مدينة عكا. أنهينا البث. وفي أثناء مغادرتنا إذ بسيارة شرطة تقطع الطريق علينا، ويأمرني ضابطها، ولم يكن بحاجة إلى التعرف عليّ من خلال بطاقة الهوية، بمرافقته إلى مركز الشرطة في مدينة عكا للتحقيق. بعد التشاور مع المحامي، لم يكن هناك من مفر. مكثت في مركز شرطة عكا ست ساعات متواصلة معزولاً عن العالم الخارجي. في الساعات الثلاث الأولى أجلسوني في غرفة مع شرطيين، وقد تم فصل جهاز هاتفي النقال ووضعه فوق كتاب استدعاء كتبوا عليه عبارة "التهمة: مساعدة العدو." ولم يسمحوا لي بالاتصال بأحد، كما لم يسمحوا لأحد، بمن في ذلك المحامون الذين حضر كثيرون منهم متطوعين لحظة سماعهم نبأ توقيفي، بالاتصال بي.

بعد هذه الساعات الثلاث حضر محققان ونقلاني إلى غرفة التحقيق الخاصة بهما.

سأل أحدهما: أتعرف لماذا أحضرناك إلى هنا؟

أجبته: لا.

قال: لقد أحضرناك لسببين: الأول لحمايتك، فهناك من يريد قتلك.
قلت: شكراً جزيلاً لكم على حماية حياتي. لكن أنتم الشرطة وكان من المفترض أن تعتقلوا الشخص الذي يهدد بقتلي. لكن، لماذا يريد فعل ذلك؟
أجاب المحقق: هذا هو السبب الثاني لإحضارك. فهناك شكاوى قدمت لنا تقول إنك بالطريقة التي تغطي بها الحرب تساعد العدو، وهو حزب الله.
سألت: كيف ذلك؟
أجاب: ألم تقل وأنت تبث من كفر ياسيف، إن كفر ياسيف تقع شرقي عكا.
تساءلت: وهل حزب الله كان ينتظر وليد العمري ليبلغه أين تقع كفر ياسيف؟!
في تلك اللحظات كانت مدينتا حيفا وعكا تتعرضان للقصف. وكان التلفاز في غرفة المحقق موجهاً على إحدى القنوات الإسرائيلية. وقد ظهر المراسل من حيفا ببث مباشر وهو ينقل ما يجري ويقول "إن بعض الصواريخ سقط في منطقة بات غليم في حيفا، وهي تبعد عشرات الأمتار غربي الميناء الحربي...".
قلت للمحقق: أنظر، إنه يتعاون مع حزب الله.
بدا لي من ابتسامته أنه غير مقتنع بما يفعله معي. لكن واجبه والأوامر الصادرة أجبرته على مواصلة التحقيق. وقد أنهاه بحضور قائده، ثم بلّغني أنه قرر إخلاء سبيلي بكفالة مصرفية قدرها ألف شيكل (نحو مئتي دولار أميركي).
خرجت لأجد أكثر من خمسين شخصاً من أهالي عكا العرب، بينهم محامون، ينتظرون في الخارج.
عندها أيقنت أن التحريض على "الجزيرة" وطواقمها بلغ ذروته، وأن حياتنا باتت في خطر فعلي. عدت إلى الفندق عند مدخل مدينة عكا لأجد أن العاملين فيه لا يطيقون رؤيتنا ويتعاملون معنا برعونة وعداء، ولمست فيه حضوراً مقلقاً لرجال أمن بالزي المدني. غادرنا الفندق وعدنا إلى القدس، وكان الليل قد أرخى سدوله.
يومان لم تعمل فيهما "الجزيرة" في شمال إسرائيل، وقد اشتد خلالهما قصف حزب الله لهذه المنطقة، وأصبحت حيفا ومعها طبرية هدفين لصواريخه. كان من الضروري القيام بعملية صد للحملة الظالمة التي تقاسم الأدوار فيها إعلاميون إسرائيليون ورجال حكم وأمن في التحريض علينا وعلى الصحافة العربية، ومن ثم امتد العداء إلى جميع وسائل الإعلام الإسرائيلية، التي تجندت بقضها وقضيضها لمصلحة الحرب وتبنت الرواية الرسمية.

صحافة المفهوم ضمناً:

"أمرك سيدي"

منذ اللحظة الأولى للحرب تجندت الصحافة الإسرائيلية عن بكرة أبيها، واستقامت مع الخط الذي فرضته المؤسسة الرسمية، ممثلة بالجيش والسلطة السياسية. "صحيح، الصوت العسكري هو الصوت الوحيد الذي تم إسماعه في نشرات الأخبار"، هكذا قال أوري ليفي، مدير قسم الأخبار في القناة الأولى في التلفزة الإسرائيلية، مضيفاً: "نفتح بشكل أوتوماتيكي الكتاب، ونتصرف بحسبه: توجد حرب – نستدعي الجنرالات." ("هآرتس"، 2006/7/19). وفي شهادة ليفي هذه ما يغني عن البحث والتدقيق، فهو بذلك اختزل دور الإعلام الإسرائيلي وأعطى تفسيراً حقيقياً لمقولة "شيكت، يوريم – إلزموا الصمت، فنحن الآن نطلق النار"، والتي كانت عنواناً لمقالة كتبها عميرام نير في صحيفة "يديعوت أحرونوت" (1982/6/6) غداة اجتياح إسرائيل لبنان في حربها ضد منظمة التحرير الفلسطينية سنة 1982.
من وجهة النظر الإسرائيلية الرسمية والشعبية والإعلامية أيضاً، كانت الحرب على لبنان "ثاني حرب منذ سنة 1948 تدافع فيها إسرائيل عن أرضها" (جدعون ساميت، "هآرتس"، 2006/7/19)، خلافاً لحرب 1956، عندما تآمرت مع الاستعمار القديم للحفاظ على مصالحه في المنطقة. فعملية خطف الجنديين تمت داخل الأراضي الإسرائيلية، والصواريخ التي أطلقها حزب الله سقطت داخل الحدود الإسرائيلية. وهذه الصورة جعلت الإعلام الإسرائيلي يسلم بأن الضربات القاتلة التي يوجهها الجيش إلى لبنان، بقراه وأهله ومنشآته وبناه التحتية، سببها "منظمة تتجاهل الاتفاق بشأن الحدود الدولية، وتعيث فساداً، بحماية الحكومة اللبنانية، ورعاية وتوجيهات محركيها في دمشق وطهران" (ساميت، المصدر نفسه).
على هذه الخلفية تم حشد الشارع الإسرائيلي، وكذلك الإعلام لترويج الحرب من دون تحفظ. وكان سهلاً على الإعلام الإسرائيلي أن يرتدي عباءة "المسلَّم به"، ويتحرك على هذا الأساس، فكان تصرفه عسكرياً ورسالته عسكرية أيضاً، إلى درجة أنه في الأسبوع الأول من الحرب لم يظهر في وسائل الإعلام الإسرائيلية سوى أربع سيدات هن

وزيرتا الخارجية والتعليم والناطقة باسم الجيش وعضو كنيست واحدة من المعارضة الليكودية. فالتوجه كان نحو عسكرة الإعلام. "عندما تقع الحرب، يدور الحديث مع أصحاب الشأن، الضباط والعسكر وقادة الجبهة الداخلية"، هكذا دافع محررو الأخبار في القناة الثانية الإسرائيلية عن موقفهم بعد أسبوع من الحرب.

هذا التفسير ذكّر البروفسور يورام بيري، رئيس معهد حاييم هيرتسوغ للاتصالات في جامعة تل أبيب، بمقالة نير المشار إليها أعلاه. فهي تعكس المزاج العام والرسمي الإسرائيلي في حالة الحرب؛ أي غياب المعارضة: "لا ليكود ولا عمل، لا متدينون ولا علمانيون، لا أغنياء ولا فقراء، لا نخب ولا رعاع، لا فُزفُز ولا تشخَتشَخيم* – الآن نحن شعب واحد بالبزة العسكرية. الزموا الصمت، فنحن الآن نطلق النار"، كما كتب نير. من وجهة نظر البروفسور بيري فإن هذه المقالة تشكل علامة فارقة في تاريخ الصحافة الإسرائيلية "لأنها المرة الأولى التي يجتمع فيها الصحافيون الإسرائيليون على موقف ويقبلون به لحظة صدوره، كموقف أكل عليه الدهر." والمقصود هنا أن المقالة كانت ضد حرية التعبير وحرية الصحافة، وهذا ما يتعارض مع واجب الصحافة – في دولة تصف نفسها بالديمقراطية – في أن تدير حواراً شعبياً ناقداً فيما يتعلق بأسباب الحرب ودوافعها ومسؤولية الجيش والحكومة، وأيضاً فيما عنى نتائج الحرب وتداعياتها والبدائل المطروحة؛ وهذه مهمة الصحافة في كيان ديمقراطي.

لا بل ذهبت الصحافة الإسرائيلية إلى أبعد من ذلك. فنصّبت نفسها حارسة على استمرار الحرب، وتحول مراسلون ميدانيون في وسائل الإعلام المكتوبة والمرئية والمسموعة إلى أبواق تروج، مع سبق الإصرار، ما تريده المؤسسة الرسمية، حتى لو لم يكن صحيحاً. وكان هناك مراسلون يتحدثون كأنهم ضباط أو رؤساء أركان، يسدون النصائح ويطلقون التوجيهات. وبدل أن يحذّروا من الحرب وعواقبها الوخيمة كانوا أشبه برقباء عسكريين على زملائهم في الصحافة غير الإسرائيلية. صحيح أن هذا الاصطفاف حول راية الحرب تبدد بعد أن وضعت أوزارها. لكن طوال أيام الحرب ظلت الصحافة الإسرائيلية مجندة بكل قواها خلف العسكر. وقد برر القيمون عليها ذلك بالحفاظ على الجبهة الداخلية موحدة في دعمها للقيادة السياسية، على أساس أن "الجيش يفعل كذا وكذا لأنه يرى أن من الصواب فعل ذلك."

تغييب الآخر

على هذه الخلفية غيبت الصحافة الإسرائيلية الحقائق والتفصيلات بشأن ما كان يجري في لبنان، بل أيضاً في فلسطين، جراء العمليات العسكرية للجيش الإسرائيلي. وغاب مع ذلك أيضاً الصوت الآخر. فكان كل من يتحدث في وسائل الإعلام الإسرائيلية لا يخرج عن السرب، وسادت "ثقافة القطيع" مع استثناءات طفيفة. وذهب الأمر إلى أبعد من ذلك، إذ لم يقتصر على الضيوف فقط، وإنما امتد ليشمل من تتم المقابلات معهم، مثلما لخصت ذلك عضو الكنيست زهافا غال – أون، من تحالف ميرتس: "وحدة الصف في الأيام الأخيرة، والتي عكستها التلفزة، لم تجد تعبيرها في اختيار الذين تجرى المقابلات معهم فحسب، بل أيضاً في اختيار الصحافيين الذين يجرون المقابلات. على سبيل المثال: في القناة الثانية لا يتيحون لصحافيات كبيرات، مثل رينا متسليح، أو دانا فايس، الحديث كمعلقات أو محللات، وفي أوساط المتحدثين يجرون المقابلات مع الأشخاص الذين تتطابق مواقفهم مع الموقف الرسمي. القناة الثانية [قناة تجارية] اتخذت خطاً رسمياً، وروني دانيئيل، المراسل العسكري، رأس الحربة في هذا الخط، بينما القناة العاشرة، بفضل محررين ومراسلين شبان، وبفضل الحضور الجيد لشيوخ القبيلة، لندن وكرشنباوم [....] نجحت في الابتعاد قليلاً عن الخط الرسمي وإذاعة بعض الانتقاد." ولا حاجة هنا إلى الحديث عن القناة الرسمية، وهي القناة الأولى، على الرغم من أن البعض اعتبر أنها كانت أفضل من القناة الثانية غير الرسمية للوهلة الأولى. كذلك كان حال الصحافة المكتوبة إذا ما استثنينا بعض الصحافيين في صحيفة "هآرتس"، وهم قلة. إنما المعلقون الكبار في الشؤون الأمنية والعسكرية، أمثال زئيف شيف ورون بن يشاي، ظلوا على مدار أيام الحرب الثلاثة والثلاثين يروجونها، ويسوقون ما يبرر استمرارها وضرورة تحقيق أهدافها. كذلك كان أليكس فيشمان في "يديعوت أحرونوت"، مع بعض التلميحات من جانبه إلى أن الحرب تجاوزت المهلة الزمنية الممنوحة لها من دون أن تحقق أهدافها. وكان الهدف الحفاظ على رأي عام داعم ومؤيد للحرب وللعمليات الحربية مع حجب الحقائق عنه، لأن تأييده كان الضمانة لاستمرار الجيش وقدرته على مواصلة القتال.

كان لقصف حزب الله منطقة حيفا، رداً على قصف سلاح الجو الإسرائيلي بيروت، وقع خاص على الصحافة الإسرائيلية، إذ أصبحت أكثر تجنداً للحرب مما كانت عليه من قبل. واعتبرت أن امتلاك حزب الله قدرة صاروخية ضاربة قادرة على الوصول إلى حيفا معناه، كما أجمع المعلقون العسكريون فيها، "القدرة على ضرب تل أبيب. لذلك

لا بد من مواصلة الحرب حتى القضاء على هذه القدرة أو الحد منها، لأنه قد لا تسنح الفرصة في المستقبل لإسرائيل للقيام بذلك، وقد يتحول الأمر إلى خطر وجودي." وكان هناك بين المعلقين من برر ضرب الأهداف المدنية وقتل الأبرياء كما جرى في واقعة قانا الثانية، علماً بأن صحيفة "هآرتس" نشرت بعد ثلاثة أيام من ذلك معلومات كذبت فيها ادعاءات الجيش من أنه قصف المبنى لوجود مقاتلين من حزب الله فيه واتخاذهم المدنيين درعاً بشرية للاحتماء بها، إذ أفادت: "الجيش لم يملك معلومات تؤكد احتماء مقاتلي حزب الله بالمكان أو على مقربة منه، كما لم يملك ما يؤكد أن صواريخ أُطلقت من على مقربة منه في اتجاه أهداف في إسرائيل." وكانت تلك أول مرة تنشر فيها صحيفة إسرائيلية ما يناقض الروايات الرسمية التي اعتاد ضباط وقادة أسلحة في الجيش ترويجها يومياً في تل أبيب، مزودين بصور جوية لمنصات صواريخ وشاحنات كان يقال إن حزب الله استخدمها في تنفيذ عمليات إطلاق الصواريخ من هذه المنطقة أو تلك.

لكن مع اقتراب الحرب من نهايتها، وخصوصاً بعد أن وضعت أوزارها، أفاقت الصحافة، وأكثر المعلقين الكبار فيها، على الخطأ الذي ارتكبوه بحق الحقيقة والمصلحة العامة العليا، وبحق أنفسهم أيضاً، وبدأت تظهر بقوة الصورة الحقيقية لما جرى فعلاً خلال الحرب على مختلف المستويات، السياسي والعسكري والإعلامي، وما جرى في الميدان والجبهة الداخلية في الشمال، وحفلت الصحف بأخبار التقصيرات والإخفاقات والقرارات المغلوط فيها والنزاعات في صفوف القادة السياسيين والعسكريين، وبدأت تظهر معها المطالبات بلجان تحقيق لتقصي أسباب ما أقرت الأغلبية بين العسكريين والسياسيين والإعلاميين بأنه كان هزيمة للجيش الإسرائيلي، وفشلاً للمستوى القيادي العسكري والسياسي.

في الحقيقة لا يمكن النظر إلى الإعلام الإسرائيلي على أنه تابع للمؤسسة الحاكمة. فهو إعلام قوي متين مشهود له على الحلبة الإسرائيلية الداخلية، أثبت نفسه في قضايا الشأن الداخلي الإسرائيلي بأنه قادر على هز حكومات وإسقاط ائتلافات وكشف قضايا فساد أطاحت رؤوساً كبيرة، وخصوصاً بعد الثمانينيات. لكن هذا الإعلام على الرغم من قوته اللافتة في الشؤون الداخلية، يظل في كل ما يتعلق بالأمور الأمنية وما يتصل منها بالصراع العربي – الإسرائيلي، على اختلاف مشاهده، منحازاً إن لم نقل مجنداً، مع استثناءات طفيفة طبعاً. وفي حرب لبنان عكس ذلك المراسلون العسكريون على نحو واضح، ولا سيما مراسلا القناة الثانية والأولى، وبخلافهما فإن مراسل القناة العاشرة كان أكثر مهنية ومسؤولية عرّضته مع قناته لاتهامات من جانب إسرائيليين غاضبين. ■

(*) مدير مكتب قناة الجزيرة في فلسطين.

(*) فُزْفُزْ لقب يطلقه اليهود الشرقيون على الأشكنازيم استهزاء بهم، وتشَختشَخيم لقب يطلقه اليهود الغربيون على المزراحيم استهزاء بهم أيضاً.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx